صيد "الحلزون"

زهيرة البيلى

دخل رجل سوبسرى مركز بوليس نيوشاتل بالقرب من الحدود ، وطلب مقابلة الضابط المسئول . كان الرجل ممدود القامة لايحمل أية صفة من صفات المقاتل أو المغامر . لكن شاءت الظروف أن يصبح الرجل بطل معركة تحولت إلى صراع دولى .

هذه معركة يجهل القارئ كل شئ عنها . لكن آن الاوان أن يعرف تفاصيلها . جاء الرجل النحيف الذى عبلته الخمر يحكى للضابط أنه عندما كان يقوم بالصيد هذا الصباح سمع صوتا ينادى عليه من على نفس شاطئ النهر . كان الصوت لرجل فرنسى ولكن داخل الحدود السويسرية . جاء الرجل الفرنسى لصيد « الحلزون » (حيوان من الرخويات يؤكل ويعيش داخل صدفة) .

سأله الصياد السويسرى لماذا هو حزين ؟ فقد كان الحزن والهم واضحين عليه . أوضح الصياد الفرنسى أن الأمور لاتسير على ما يرام . وأنهم يريدون طرده من السيارة النقل القديمة التى يقيم بداخلها مع أسرته . كما أنه يعانى من أزمة مالية . ويخشى أن تهجره زوجته . نصحه الصياد السويسرى بأنه سبق له أن عانى من ظروف مشابهة ولكن الأفضل فى هذه الأحوال أن يعود إلى بيته لتناول كأس . وفى اليوم التالى مع إشراقة صباح جديد ، تسير الأمور على أحسن وجه . لكن الصياد الفرنسى كان يخشى العودة الى بيته فلا يجد زوجته فى انتظاره . لذلك راودته فكرة الانتحار . طلقة واحدة فى الرأس وينتهى كل شئ . بعد هذه الشكوى عبر الصياد الفرنسى النهر عائدا الى بلاده ولم تمر سوى لحظات حتى سمع عيارا ناريا . فجرى الصياد السويسرى إلى شاطئ النهر ، وأخذ ينادى على زميله الذى لم يجب أبدا .

ولم يستطع الصياد السويسرى عبور النهر إذ كان من السهل على الفرنسيين العبور إلى سويسرا ، لأنهم يسمحون لأنفسهم بالتوسع داخل أراضى الغير ، الشئ الذى لايسمح به السويسريون لأنفسهم .

بالقرب من الحدود الفرنسية - السويسرية استعان رجل البوليس بمرشد من الفلاحين ، استخدمه فى تخطى المنبر بين أشجار الغابة الكثيفة . خلف الرجلين سار طبيب رفع رجل بنطلونه عبر مبال يتعلق معطفه الواق بالنباتات الشوكية المنتشرة فى المنطقة .

أطلقت السكرتارية العامة للانتربول برجل البوليس الفرنسى فى تلك المغامرة المثيرة التى شاركه فيها على الجانب الآخر من الحدود ضابط سويسرى . تمتع الرجلان بقامة فارعة ، بدا عليهما الجد والحزم . الدقة فى العمل بلا هوس أو غرور . عندما يشدان قبعتيهما العسكريتين على الوجه الصارم يظل الشعر حاملا تلك العلامة الدائرية لفترة طويلة . لا يفرق بينهما شئ إلا أن الأول فرنسى والثانى سويسرى . واحد يرتدى الزى الرسمى الأخضر والآخر يرتدى الزى الأزرق . فجأة عندما صرخ المرشد الريفى فى دهشة انتفض رجل البوليس فى ذعر .

جثة رائعة ! ! فى أعلى الخيمة جرح بدا واضحا تماما . الدماء تجلطت على أوراق الشجر الجافة . ولكن مع ذلك وضحت آثار بعض الخطوات منزلقة سقت السقوط . كان الصياد الفرنسى يرتدى حذاء طويلا من الكاوتشوك . وبنطلونا من الجاردين الممزق وبلوفرا وسترة رياضية . لاشئ يثير الدهشة سوى أوراقه الشخصية التى عثر عليها فى الجيب الداخلى للسترة . كان الرجل فى الثالثة والأربعين من عمره ، ولد فى بلفور . لاشئ يبعث على الغرابة سوى الأسباب التى قادت الصياد إلى هذا المكان . على بعد خطوات من الجثة تم العثور على دلو فارغة بها بعض الثقوب الصغيرة . هذه الدلو التى يحملها صيادو « الحلزون » . وعلى بعد خطوات أخرى عثر على حلقة معدنية أثارت اهتمام رجل البوليس . حلقة قطرها ٣٥ ملليمترا .

من الجانب الفرنسى بدأ رجل البوليس التحقيق الذى بدأ ليستمر فى دائرة مفرغة . عرف القتيل بخدماته أكثر من صيادا معروفا ، أو محالفا للقوانين

ذائع الصيت . عندما رأت زوجته وأطفاله الجثة مقبلة عليهم فوق النقالة . أخذت المرأة تصرخ مثل المخبولات فى الأزمنة البعيدة . أخذت تحتضن جثة الزوج ، تغسلها بالبكاء كما لو كانت دموعها سوف تعيده إلى الحياة . طبقا لأقوال الزوجة تبين أن الزوج ذهب بمفرده للصيد فى الساعة السابعة صباحا . الصياد لايعيش مأساة عائلية حقيقية . وبين دمعتين قالت الأرملة إن زوجها كان يحمل معه بندقية . البندقية التى عثر عليها البوليس بالفعل وسط الأشجار الكثيفة وليس بعيدا عن الجثة . لم يكن بالبندقية سوى طلقة واحدة لم تستخدم . فهل هى عملية انتحار بالفعل ؟

باستثناء أن الأرملة كانت تحزن زوجها الصياد للاث مرات فى الأسبوع . وأن أحد أبنائه مصاب بالسعال الديكى . والآخر مريض بالحصبة . وباستثناء أنه متقل بالديون وأن البقال يرفض التعامل معه . وإذا استبعدنا أنه تأخر فى دفع إيجار السكن ثلاثة أشهر وأنه مهدد بالطرد . خلاف هذا كله فهو لا يعانى من أية مشاكل محددة ، الا أن عملية جمع حيوان « الحلزون » كانت تأتى له بالعائد الكبير . فالحيوان الواحد يباع بحوالى ٢٥ سنتيما مع تراكم وتواجم هذه المعلومات كلها لم يتضح أمام البوليس سبب واحد أو دافع واحد وراء القتل أو الانتحار .

وبعد فحص الطلقة التى أخرجت من جثة القتيل تبين أنها ليست من نفس عيار بندقية الصياد الفرنسى . لذلك رأت العقول المفكرة الفرنسية ضرورة استجواب المواطن السويسرى لأنه يعتبر حتى الآن الشاهد الوحيد . وتم هذا كله بالاتصال بالسكرتارية العامة لانتربول زيورخ .

من الجانب السويسرى ، بما أن العملية بدأت تتخذ الطابع الدولى ، وصل محرر سرى خصيصا من زيورخ . الأمر الذى تطلب من الصياد السويسرى إعادة أقواله . الشئ الذى زاد من إنكاره المستمر لاشتراكه فى مقتل الصياد الفرنسى .

وفى الجانب الآخر من الحدود جند ضابط البوليس الفرنسى أحد رجاله ليعيد تمثيل الجريمة ويقوم بدور القتيل أمام الخبير الجديد الذى جاء أيضا خصيصا من باريس ، ليكون كل هذا أعلى مثل للتعاون بين أجهزة الأمن بعضها وبعض . من الجانب الفرنسى يمضى الرجل الذى يؤدى دور الضحية ليخلع سترته . بينما أخذ الصياد السويسرى يكرر : « ولكن لماذا أقتله ؟ لم أره فى حياتى من قبل ! » .

حقيقة أنه لقتل إنسان ما ، فلابد من دافع أو باعث . واختفاء الباعث هنا عيب كبير . لذلك فكر الضابط الفرنسى على الفور فى تلك الحلقة المعدنية التى يبلغ قطرها ٣٥ ملليمترا والتى تم العثور عليها بجانب الجثة . كان عليه أن يعرف استخدام هذه الحلقة . الحلقة التى أصبحت فى الأهمية الأولى . بعد أن تم تصويرهامن الواجهة والجنب . أرسل تقريرا طويلا للسكرتارية العامة لانتربول زيورخ . تخص فى عبارة واحدة « فيم تستخدم هذه الحلقة ؟ » .

كان رجال البوليس السويسرى شديدى الدقة لايميلون اطلاقا الى الخديعة . لذلك حرصت زيورخ على الإجابة ببرقية طويلة أوضحت فيها أن الحلقة المعدنية تستعمل فى قياس حجم حيوان « الحلزون » . . فكل حيوان يمر من الحلقة يطلق سراحه . وهذه الحلقة تخضع للجهات الرسمية ويستخدمها اجباريا صيادو المنطقة بناء على تصريح رسمى يكلف حوالى ٣ فرنكات أما الحلقة نفسها فتباع بثلاثة فرنكات . عندما أصبح جمع هذا الحيوان تهديدا لانقراضه منع صيده لمدة للاث سنوات . . ووقعت الجزاءات على الصيادين المخالفين أما باقى المقاطعات السويسرية فلحماية هذا الحيوان النادر تم تطبيق القوانين المائلة ولكن الأكثر تشددا .

وكان وصول هذه البرقية إيضاحا كافيا للأمور ، ومع يوم جديد تبين أن المواطن الفرنسى لم يكن فى حاجة إذن إلى هذه الحلقة . لذلك كان من الأرجح أن هذه الحلقة المعدنية لا تخص سوى الصياد السويسرى . الشئ الذى يؤكد عبور النهر ويوضح فى نفس الوقت كذب أقواله .

وعندما طلب من الصياد السويسرى إبراز الحلقة الخاصة به . بحث عنها طويلا فى كل مكان دون جدوى . وهنا فاجأه رجل البوليس بسؤال : « ربما أنك ذهبت بمحض الصدفة مثلا للصيد فى فرنسا ؟ وهناك فقدت الحلقة ؟ ! » .

أنكر الصياد بشدة محاولا التخلص من الموقف منهيا الفرنسيين بأنهم هم الذين يخرقون الحدود ويأتون للصيد فوق

الأراضى السويسرية . ولكن أمام ضغط وكثرة الاستجواب انتهى الصياد بأن أفضى بكل مالديه . أصر أنه حتى لو ذهب للصيد فى فرنسا فإنه فى النهاية يسرد ما يملك . وهذا لأن الفرنسيين يجلبون حيوان « الخلزون » إلى أراضيهم وهذا بأن يضعوا له بعض أوراق السلطة الخضراء على الحدود . وأمام نظرات الدهشة التى أبداها رجال البوليس أخذ الصياد يؤكد أن الناس جميعا على علم بهذا الذى يحدث مرارا .

لم يكن فى إمكان البوليس أخذ هذا الاتهام ببساطة . لذلك توجه الضابط الفرنسى إلى مكان الحادث . وبعد عمليات البحث والتفتيش وفور عودته رفع سماعة التليفون ليتصل على الفور برؤسائه . إذ كان تحته الجايا . ووسط الحشائش الكثيفة عثر على بقايا أوراق السلطة الخضراء الذابلة التى استخدمت بالفعل لجذب الحيوانات النادرة من سويسرا .

وهذه العملية تستغرق وقتا . إذ أن هذا الحيوان يتحرك بسرعة تتراوح بين ثلاثة وأربعة أمتار فى الساعة .

هذه التقارير الفرنسية الجديدة جاءت لتوضح الدافع وراء الجريمة . ولابد أن الصياد السويسرى قتل زميله الفرنسى لأنه يجذب تلك الحيوانات الى الجانب الآخر من الحدود . وبعد المقارنة ثبت أن الطلقة التى استخرجت من جثة القتيل هى من نفس عيار بندقية الصياد السويسرى .

لم تستطع سويسرا التصدى لهذا الاستنتاج الجديد . إذ كان هناك ماهو أخطر . طبقا لتقرير الطبيب الشرعى ثبت أن الوفاة حدثت فى الساعة الثامنة صباحا . وأن الصياد السويسرى لم يأت لإبلاغ البوليس إلا بعد ظهر نفس اليوم . وهنا لم يكن أمام الصياد سوى الاعتراف .

اعترف الصياد أخيرا بجريمته . حكى أنه ذهب للصيد فى الساعة السابعة صباحا . ولكنه عندما لم يعثر إلا على القليل من « الخلزون » . . وبعد ساعة من العمل الشاق . قال لنفسه إنه لابد أن الصياد الفرنسى القذر قد جذبها كلها إلى أراضيه . فذهب إلى شاطئ البير . وملح بالفعل الصياد الفرنسى . فصرخ فى وجهه الصياد الفرنسى عبر البير . وتأكد بنفسه من الدلو الممتلئة بالحيوانات الضخمة . أما هو فلم تبق له سوى عشرة فقط أخذت تتصارع فى قاع الدلو . وفوق هذا كله وقف الصياد الفرنسى يسخر منه . قائلا إنها سوف تمزقها من الحلقة المعدنية . الشئ الذى دفع الصياد السويسرى لإخراج حلقته المعدنية لقياسها والتأكد من صحة كلامه . وعندما انحنى الصياد السويسرى لالتقاط واحد من الحيوانات الضخمة منعه الصياد الفرنسى وطلب منه العودة إلى الأراضى السويسرية اذ أن هذا « الخلزون » فرنسى ينتمى إلى الأراضى الفرنسية . وأثناء ذلك النزاع رفع الصياد الفرنسى سلاحه فى وجه زميله الذى بلغ به الغضب حد إطلاق النيران على الصياد الفرنسى .

بعد فترة صمت طويلة مد رجل البوليس الورقة التى سجل عليها الاعتراف . وطلب من الصياد التوقيع فى نهاية الصفحة . وبصوت مرتعش أخذ الصياد يؤكد أنه بعد ارتكابه الجريمة شعر بالذنب . فإن الشجار على الصيد لم يكن يستحق هذه الفعلة الشنعاء .

لذلك حاول الانتحار ولكن كانت بندقيته فارغة من الطلقات . فحاول الانتحار عن طريق الغاز الشئ ، الذى لم يسبب له سوى الصداع النصفى . ثم ذهب لجمع عش الغراب السام وبعد طهى ما جمعه أكله كله .

ولكن من حسن حظه أنه كان صالحا للأكل . ولم يعان إلا من المغص الحاد . هذه المحاولات الانتحارية الفاشلة لم يكن لها أى تأثير على هيئة المحكمة . وأثناء نظر القضية بين خبراء التسليح أن العيار النارى الذى أردى الصياد قتيلا . أطلق عليه من الجنب ، الشئ الذى سمح بتغيير الدعوى وثبت أن الصياد السويسرى كان فى محاولة دفاع شرعى عن النفس ، كما استطاع محامى الصياد السويسرى إثبات أن الرجلين قبل وقوع الحادث تقاسما زجاجة من الخمر . أى أن الرجلين وقعا تحت تأثير الخمر . الشئ الذى جعل المسئولية الاجرامية ليست كاملة .

يوم ٢٤ يناير عام ١٩٧٣ حكم على الصياد السويسرى بالسجن لمدة خمسة عشر عاما مع الشغل والنفاذ .

بقيت مشكلة واحدة هى اختفاء السلالة الفرنسية من حيوان « الخلزون » وحمايتها . المشكلة التى تتولى السلطات بحثها حتى اليوم . وطبقا لآخر المعلومات والأنباء ، حتى الساعات الأخيرة من طبع هذا الكتاب لم يرد بند فى وزارة الإسكان اسمه « خلزون » . □